٣ - في التربية

الحرية في المدرسة

امتازت المدرسة القديمة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) بالحط من شأن حرية الناشئ ، وفرض قيود ونواميس خارجية تسعى الى صبه في قالب خاص قسراً ، وتدربه على الخضوع باسم النظام . وكانت النتيجة ظهور فرد سلبي ضعيف الشخصية ، يؤمن بالعقاب ، ولا يرى للميول النفسية معنى بل بقايا الشر في ابن آدم .

وبعد الحرب العالمية الأولى ظهر دعاة التربية الحديثة المنادون بالحرية في التربية ، ووجوب إطلاق الطفل من قيوده واعتبار حريته حقاً وهبته له الطبيعة ، وإذا كان للتربية أن تساعد الطبيعة في عملها ، فعليها أن تجعل نظمها خاضعة لطبيعة الناشئ وميوله ومتفقة معها في أطوارها حسبما كشف علم النفس ، حتى تنمو شخصية الفرد نمواً مثالياً منسجماً . فللناشئ طبيعة توحي له بالعمل ، وتعدل سلوكه في مراحل حياته ، وما على المربي إلا التوجيه والملاحظة مع أقل حد ممكن من التدخل . وإنما يؤدي اعتراضه سبيل الميول — فيما يرى منتسوري — إلى الكبت الذي إن أفلح مؤقتاً لوجود السلطة ، فهو سوف يحدث رد فعل فيما بعد . ويقول هكسلي ، بأنه ما دام المثل الأعلى للديموقراطية هو حرية الفرد ، فليتعلم الفرد حكم نفسه بنفسه ، وما العقاب والإرهاب إلا عقبة في سبيل الناشئ ، فهي لا تساعده على أداء عمل يعتقد بأنه نابع من ذات نفسه ، بل إن العقاب والإرهاب يحط من قيمة المعلم والمتعلم وليست الحرية تدليلاً وليناً وتساهلاً ، وإنما هي حق طبيعي لا يؤدي محاربته إلا إلى الضرر .

• • •

وليس معنى الحرية الفوضى ، وإنما معناها إيجاد فرد حر الفكر قوي الشخصية . والنظام من طبيعة الأشياء ، وهو ضروري لكل نبراس بشري ، والفرد بحاجة إلى الأمن والطمأنينة والقوانين الأخلاقية والأدبية لأداء عمل من الأعمال ، كذلك الناشئ في المدرسة ، يستطيع

في ظل النظام أن يدرب على التعاون والاستقلال، وتحمل المسئولية والاعتماد على النفس وتكوين شخصية حرة في ظل نظام واحد، وينصح أنصار الحرية، كمنتسوري، بوجوب تدخل المرشدة إذا ظهر سلوك من طفل لا يرغب فيه ويؤذي المجتمع، وإنما ينبغي أن يكون التدخل في أدنى صورة ممكنة.

وتستطيع المدرسة أن توفر الحرية لأبناء مجتمعها إذا سادها شعور الأسرة: والعطف والتقدير بين أفرادها، فيصير معلموها مرشدين، وتوفر لأبنائها مجال العمل الفردي في إطار من تقاليد تشبع الميول وتكوّن الشخصية والإرادة وترسم مثلاً عليا محببة، فيعتنق الأبناء هذه المثل مؤمنين بأنها أقوى ما هم في حاجة إليه في حاضرهم ومستقبلهم. والمدرسة قلب المجتمع، وهي الصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل، ومعبر الناشئة إلى الحياة وميدان التكيف بالبيئة بصورة نقية مثالية.

* * *

ولا تكاد تتسع مراحل الدراسة في المدارس المصرية لإشباع ميول الناشئة وتقدير ما ينشدون من حرية. وتدل على ذلك الأرقام التي تنتهي إليها الامتحانات في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية، ولا يقتصر السبب على تدخل السياسة في المدرسة، وإنما تجد السياسة طريقها إلى المدرسة خلال ضعف الوطنية في نفوس أبنائها، وإنما يفهم الطالب في كل بلد متمدين معنى الوطنية الحقة، ويتشرب مبادئها ويقدسها ويبذل دماءه في سبيلها. بل تكمن مواطن الداء فيما ينتاب المناهج والمواد الدراسية من جمود يدعي البعض أنه محافظة، وما المحافظة إلا الإبقاء على قديم صالح. وإنما يحشو الطالب ذهنه بمعلومات لا تتصل بحاجاته النفسية، ولا بأهداف الحياة العملية، ولا توحي له بفائدة، ولا تفتح له باب الرغبة للاستزادة. وقد ساعدت نظم الامتحانات العامة وامتحانات النقل على الانصراف عن الدراسة، فامتحانات الفترات في المدرسة الثانوية شكلية، ولا دخل لها في نجاح الطالب أو رسوبه، وإنما يستذكر دروسه شهراً في نهاية العام فينجح أو يرسب، ويضيع معظم أوقات العام في السياسة أو فيما هو شر منها.

ولا يلقى الطالب من مدرسته عطفاً وتشجيعاً يشعره بأنه فرد في أسرة، بل تخضع المدرسة ذاتها لنظام مركزي يخضعها لسياسة عليا، تقيس نجاح إدارتها بمدى ما لها على طلابها من سيطرة واستبداد في أغلب الأحوال. فلا تجد المدرسة بدورها من سبيل إلى ذلك إلا استعمال وسائل العقاب، ويقوم الناظر بدور المنفذ لتعليمات عليا، ويُعنى بالشكليات

التفتيش أكثر مما يعني بما على هوامش التربيـة الحديثة من قيم مصاحبة أبعد أثراً وأكثر نفعاً للناشىء في الحياة .

وإنما علاج هـذه العيوب هو إعادة النظر في البرامج المدرسية إعداداً حديثاً يبنى على أسس نفسية حديثة ، تهدف الى خلق مواطن مستنير ، فتنتظم البرامج في شعبهـا المختلفة بحيث تجنح عن الشكليات إلى مواطن الجمال اللفظي والمعنوي في الآداب ، وإلى تفهم مظاهر الكون البشرية والحيوانية والمعدنية بحيث يكون الانسان محورها جميعاً في العلوم ، وإلى تفسير البيئة المحلية كمحور للعالم في الاجتماعيات ، وإلى التشرب بمبادىء الانسانية والأخلاق والدين في الوطنية ، تبعاً لما تقتضيه مكانة مصر في العـالم اليوم ، وتبعاً لعراقتها الماضية . ولا يتأتى ذلك إلا بإعداد جديد للبرامج بحيث تتسق في مراحل التعليم الابتدائية والثانوية والجامعية ، فتزول من بينها ما نراه اليوم من ثغرات .

ومن الخير للمدرسة أن تمنح حرية في العمل ، حتى يستطيع رئيس المدرسة أن يكون رأس الأسرة في مدرسته ، ويديرها مع أساتذتها بما يحقق خلق أسس وتقاليد متينة قوية للأجيال القادمة فيها . وربما كان من الأجدى لنظم الامتحانات اعتبار امتحان نصف العام مساوياً لامتحان آخر العام ، واعتبـار متوسط العمل الدراسي في نصف العـام مكملاً لهما ، وتقرير نجاح الطالب ورسوبه تبعاً للمتوسط الرباعي ، فذلك أدعى الى تدعيم الصلة المدرسية بين الطلاب والأساتذة ، ومشجعاً للطلاب على العنـاية بشؤون العلم . وقد رأينا كل هـذه النظم ناجحاً في البلاد الأخرى .

وكم اهتزت نفوسنا حين رأينا تلاميذ المدرسة ملتفين حول علمهم في الصباح ، ينشدون نشيدهم الوطني ويتلونه أو يسمعونه مرة أو مرتين في الأسبوع ، ورئيس المدرسة يوجه إليهم كلمة حارة في قيمة هذا العلم الذي تسيل في سبيله الدماء وتفتديه النفوس .

وما تلك بكل العلل ولا أنواع العـلاج التي توفر لأبنائنا مجالاً حراً في المدرسة ، وترغبهم فيها وتشعرهم بحاجتهم إليها ، وفقنا الله لعلاج مشاكلنا والارتفاع ببلدنا حتى يتبوأ مكانه العريق .

محمود عامر شوكت حماه ــ سوريا